دول المغرب الموحدة (التجربة الموحدية)

الدولة الموحدية :

أول من أشعل فتيل الثورة الموحدية ضد دولة المرابطين اللمتونيين هو محمد بن تومرت الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب ، وكنيته أبو عبد الله ويلقب بالمهدي ، وقد ارتحل إلى المشرق للنهل من مدارسها وعلمائها فعاد إلى المغرب فقيها عالما ، وفي طريق عودته كان قد شرع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما تعرّف أثناء عودته وفي المهدية على عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي وصار تابعا وفيا له ، ثم واصل رحلة عودته حتى وصل إلى بلاد المصامدة وكثر أتباعه وتمت له البيعة وصار يشكل خطرا على دولة المرابطين .

لقد كانت شخصية ابن تومرت مثارا للجدل ، إذ نقلت لنا المتون النصية للمدونة التاريخية أخبارا عنه وعن أفاعيله تراوحت بين المدح والذم ،

شرع المهدي بن تومرت في حرب المرابطين سنة 515هـ ، ودخل معهم في عدة معارك غير انه توفي سنة 524 هـ ، قبل أن يكمل مشروعه فواصل من بعده عبد المؤمن بن علي الحرب على المرابطين ، وقد قويت شوكة الموحدين أكثر وتراجعت قوة المرابطين واستطاع عبد المؤمن بن علي من اجتياح المدن المرابطية الواحدة تلوى الأخرى إلى أن دخل عاصمة المرابطين مراكش وقضى على ملكهم سنة 541 هـ واتخذها عاصمة لدولته .

شرع عبد المؤمن بن علي بعد ذلك في إخضاع بقية مناطق المغرب والأندلس ابتداء من سنة 541 هـ ، فقد قدِم إليه وفد من الأندلس سنة 541 هـ وهو لا يزال في مراكش ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن بن علي ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين والتزامهم لطاعته وإقامتهم لأمره في بلادهم ، فقبل عبد المؤمن طاعتهم وشكر هجرتهم ، ثم طلبوا من النصرة على النصارى ،

فجهز جيشا كثيفا ومعه أسطول بحري ضخم فدخلوا مدينة اشبيلية وملكوها ثم ملكوا البلاد الإسلامية التي بها ، كما أرسل حملات أخرى لاحقا إلى الأندلس حتى استقام له أمرها ودانت لسلطانه.

أما عن بقية بلاد المغارب فقد صارت له اليد الطولى عليها فاخضع مدينة بجاية وقضى على ملك بني حماد سنة 547 هـ ، ثم ظفر بصنهاجة واستولى على القعلة ، وكذلك سطيف سنة 548 هـ ، ثم استولى على تونس سنة 554 هـ ومن بعدها المهدية سنة 555 هـ وحررها من الفرنج ورتب أحوالها ونقل إليها الذخائر والسلاح والرجال ولم تحل سنة 556 هـ حتى دان له المغرب ، فبلغت سطوته حتى طرابلس .

في سنة 558 شرع عبد المؤمن في تجهيز حملة كبيرة لقتال النصارى في الأندلس غير أن المنية أدركته بسلا (في المغرب الأقصى) في ذات السنة .

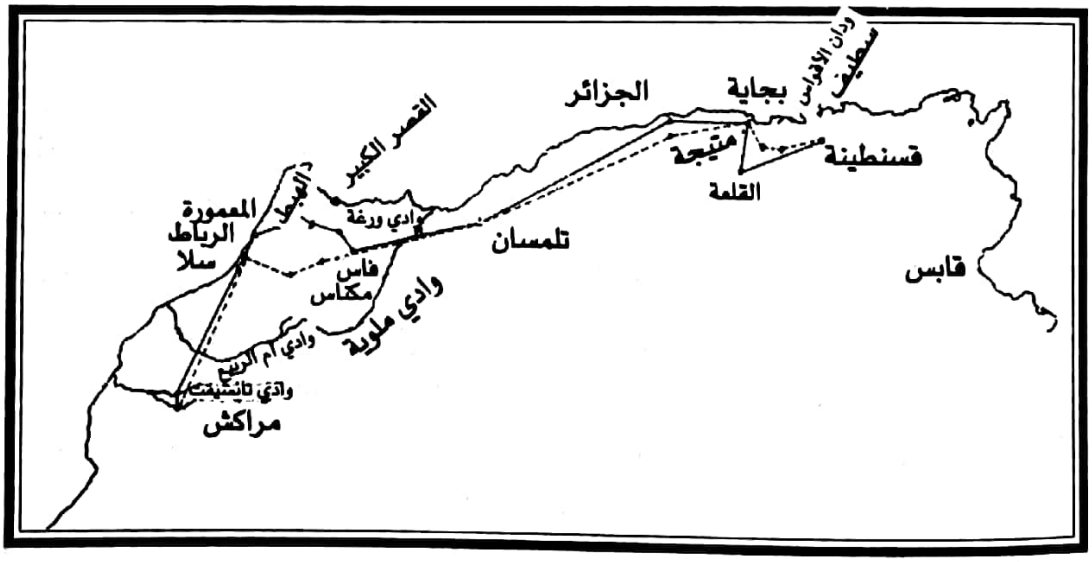

حملة عبد المومن إلى بجاية وقسنطينة

خريطة رقم 4 : حملات عبد المؤمن بن علي إلى بجاية وقسنطينة [1] .

[1] امبروسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية ، ترجمة : عبد الواحد أكمير ، ط 1 ، النجاح الجديدة ، الدار البيضاء (المغرب الأقصى) 2004 ، ص 155 .

بعد وفاة عبد المؤمن تولى الخلافة اكبر أبنائه وهو محمد وكان قد عقد له أبوه بالبيعة في حياته ، ثم بايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد ، غير انه عُزل بعد 45 يوما لأمور أُخذت عليه لا تصلح معها الخلافة من إدمان خمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ، كما كان به ضرب من الجذام ،ليتولى بعد ذلك أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حيث بويع بالخلافة ليواجه في بداية حكمه فتنتان ، ففي سنة 562 هـ ثار أهل جبار غمارة فاضطر إلى الخروج بنفسه والقضاء على الفتنة ، وفي سنة 575 هـ ثار ابن الطويل في قفصة فسار إليه وحاصره ، كما واجه هذا الخليفة ابن مردنيش المتحالف مع النصارى في الأندلس وانتصر الموحدون في مرسية ، وبعد ذلك واصل يوسف بن عبد المؤمن حروبه في الأندلس إلى أن أُصيب بسهم مسموم عند أسوار شنترين ومات بعد ليلتين في 07 رجب سنة 580 هـ .

بعد استشهاد يوسف بن عبد المؤمن خلفه ابنه المنصور (أبو يوسف يعقوب بن يوسف) وبايعه الناس وتركزت جهوده في القضاء على الثورات وأخطرها ثورة بنو غانية التي كان هدفها بعث الحكم المرابطي من جديد وهددت دولة الموحدين ، (580 - 631 هـ) ورغم أن ابن غانية هلك سنة 584 هـ إلا أن أخاه يحي بن إسحاق واصل الثورة ، كما وجه المنصور جهوده لقتال النصارى في الأندلس وعبر إليها سنة 585 هـ فقتل وسبى وغنم وعاد إلى المغرب فاستغل النصارى الفرصة وعاودوا الهجوم على المسلمين هناك .

غير أن اكبر انتصار أحرزه الموحدون بقيادة المنصور في الأندلس هو انتصارهم في معركة الأرك سنة 591 هـ ضد النصارى بقيادة الفونسو الثامن والتي يصف النويري انهزام الفونسو بقوله : << ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد خلفوا قلعة رباح وساروا عنها ، فملكها وجعل فيها واليا وجنداً وسار إلى مدينة اشبيلية ، وأما الفنش (أي الفونسو 8) فانه حلق بأسه ونكس صلبانه ، وركب

حمارا ، واقسم ألا يركب فرسا ولا بغلا حتى ينصر النصرانية >> . وبعد انتهاء المعركة ، اكتسحت قوات الموحدين في السنوات التي بعد الارك عدة مناطق أندلسية فقتلت رجالها وسبت حريمها وخربت دورها وغنمت منها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام ، وتوفي المنصور سنة 595 هـ .

بعد وفاة المنصور تولى الخلافة ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله وتمت مبايعته غير انه واجه عدة مشاكل من بينها استمرار بنو غانية في الثورة الذين استولوا على كثير من مناطق افريقية مستغلين انشغال الموحدين في قتالهم للنصارى بالأندلس ، كما ظهر بالمهدية ثائر اسمه محمد بن عبد الكريم الركراكي الذي قتله بنو غانية سنة 599 هـ ، كما ثار أهل غمارة 595 هـ فأخمدها ، وثار رجل بالسوس يدعى ابن الجزارة في سنة 597 هـ وانتصر على حامية الموحدين هناك لكنهم انتصروا عليه بعد ذلك وقتلوه .

غير أن اكبر نكسة تعرض لها الموحدون في عهد الناصر لدين الله هي هزيمتهم بالعقاب في الأندلس سنة 609 هـ ضد النصارى الذين مرّغوا انف الموحدين في التراب ويسمى النصارى هذه المعركة لاس نافاس دي تولوسا (اسم أودية) وكان النصارى في شكل تحالف ضم القشتاليين والاراغونيين والقطلانيين وكان يقودهم الفونسو الثامن . وعلى أية حال فقد كانت معركة العقاب بداية النهاية للموحدين بعد ذلك توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة 610 هـ

بعد هذه المعركة المشئومة على الموحدين تولى الحكم خلفاء لم يستطيعوا إعادة الدولة إلى سابق عهدها فزادت خلافاتهم العائلية وكثرت الثورات عليهم وزاد تحرش النصارى بملكهم في الأندلس حتى أفضى هذا الوضع إلى انفصال الحفصيين بالمغرب الأدنى والزيانيين (بنو عبد الواد) بالمغرب الأوسط وبنو نصر في الأندلس إلى أن ظهر المرينيون وقضوا على حكم الموحدين سنة 668 هـ .

وأما الخلفاء الموحدون بعد العقاب فهم :

يوسف بن محمد الناصر ولقبه المنتصر بالله ، وحكم عقب وفاة أبيه إلى غاية سنة 620 هـ ، وخلفه أبو محمد عبد الواحد (المخلوع) وبويع على كره منه وكان رجلا صالحا فاضلا وحكم لحين وفاته ثمانية أشهر وتوفي سنة 621 هـ ، فخلفه أبو محمد عبد الله (العادل) الذي دام حكمه إلى غاية وفاته سنة 624 هـ ، فخلفه أبو زكريا يحي الملقب بالمعتصم بالله ، فلم يلق الإجماع على المبايعة ودخل في صراع مع عمه إدريس الملقب بالمأمون الذي بويع من قبائل أخرى مثل هكسورة ، ودخل الفريقان في حرب ، وانهزم الخليفة يحي إمام عمه إدريس فاضطربت الأوضاع وغلت الأسعار وخِيفت الطرقات وعم الفساد والخراب وعاد أشياخ الموحدين يعبثون ببني عبد المؤمن ، يبايعون وينكثون ، فلما اختلّت الأوضاع خرج الخليفة يحي من مراكش إلى تينمل سنة 626 هـ ، وبايع الناس عمه إدريس المأمون وكانت له نفس كبيرة ، وكان عالما كاتبا أديبا فصيحا ، وهو من أمر بزوال اسم المهدي من السكة والخطبة وجميع رسوم الموحدين وتوفي سنة 629 هـ .

تولى الخلافة بعد ذلك أبو محمد عبد الواحد (الرشيد) في غرة محرم سنة 630 هـ وقد أخفى موت والده إلى أن تمت مبايعته وخل في حرب مع منافسيه (يحي الذي قتل سنة 633 هـ) وقد توفي الرشيد غريقا في صهريج القصر سنة 640 هـ ، وتولى الخلافة بعده أبو الحسن علي بن إدريس ولُقب بالسعيد وسمي بالمعتصم بالله على رواية صاحب روض القرطاس ، بينما ذكر ابن خلدون بأنه تلقب بالمقتدر بالله وفي نسخة مخطوطة أخرى ورد بلقب المعتضد بالله، وقد بويع بعد وفاة أخيه سنة 640 هـ واستفحل في عهده بنو مرين وبنو زيان ودخل في صراع معهم إلى أن قُتل وهو محاصر ليغمراسن بن زيان في تلمسان سنة 646 هـ ، وتولى الخلافة بعده أبو حفص عمر بن السيد إسحاق الملقب بالمرتضى سنة 646 هـ ، والذي نازل المرينيين في فاس وانهزم وتراجعت عساكره إلى مراكش التي فر منها لاحقاً وقُبض عليه وقُتل سنة 665 هـ .

تولى الخلافة بعد ذلك أبو العلاء إدريس الملقب بابي دبوس [2] آخر ملوك الموحدين سنة 665 هـ وقد دخل على الخليفة السابق المرتضى غدراً بدعم من يعقوب بن عبد الحق المريني ففر منها وبذلك بايع الموحدون الخليفة الجديد أبا العلاء إدريس الملقب بابي دبوس والملقب أيضا بالواثق بالله ، وكان أبو دبوس قد اتفق مع المرينيين أن يعطيهم نصف البلاد التي يملكها مقابل دعمهم له للتخلص من الخليفة السابق (المرتضى) ، لكن الخليفة أبا دبوس لما استوثق له الأمر وتغلب واخذ البيعة نكث عهده ، قائلا ليعقوب بن عبد الحق المريني أن يغتنم سلامته ويقنع بما بيده من البلاد ولا يأتيه بجنود لا قبل له بها ، فوقعت بين الفريقين حروب شديدة انتهت بمقتل أبي دبوس آخر الخلفاء الموحدين في مستهل سنة 668 هـ ، بينما ذكر ابن أبي زرع الفاسي صاحب روض القرطاس أن وفاة آخر خلفاء الموحدين وانقراض دولتهم كان في منسلخ سنة 667 هـ .

لقد تضافرت مجموعة عوامل عجلت بسقوط الموحدين بعد وقعة العقاب سنة 609 هـ / 1212 م ، منها الضعف السياسي والحربي والنفسي الذي مُنِي به الموحدون بعد وقعة العقاب المشئومة ، وكذا فوضى الإدارة وتفكك النسيج القبلي الموحدي ، والاضطرابات التي أحدثها الاكتساح العربي الهلالي للمناطق الموحدية وما نجم عن تلك الغزوات ، ناهيك عن التوسع المسيحي في الأندلس على حساب الموحدين ، إضافة إلى ثورة بني غانية التي شتت جهود الموحدين وفتحت عليهم جبهة قتال إضافية ، وعامل آخر مهم ويتعلق بضعف البيت الحاكم الموحدي بعد وفاة الناصر اثر وقعة العقاب وزيادة نفوذ الإدارة والولاة داخل منظومة الحكم الموحدي المتهالك أصلا .

---

[2] كان لا يفارقه الدبوس . مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 169 ؛ ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 447 .